

## مدخل انثروبولوجي لممارسة الوشم.

د.ة/ فتيحة كركوش.

جامعة البليدة-2

- مقدمة:

تعد ممارسة الوشم عملية صعبة التعريف بسبب تعدد وظائفها وتباين دلالاتها، وبما أن الوشم هو إنتاج إنساني فهو يستدعي اهتمام كل العلوم التي تختص بدراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم)، كما أنه يؤرخ طقوسا أولية لمجتمعات تقليدية أو لعصابات من المراهقين أو لجماعات بشرية مختلفة، إضافة إلى كونه يعبر عن مطالب مزدوجة الأبعاد: اجتماعية موجهة نحو الآخر، وشخصية متمركزة حول الذات.

وقد تطورت هذه الممارسة عبر الزمن، فبعد أن كان الوشم يقوم بوظيفة التنشئة والاندماج الاجتماعيين (وما يزال يحافظ على هذه المهمة) أضيفت إليه وظيفة أخرى ذات طابع فني وجمالي بشكل لافت للانتباه، ومثل هذا التطور في القيام بالوشم يعكس عملية التغير التي تعيشها المجتمعات الإنسانية عبر الحقب التاريخية. ومهما اختلفت دلالات الوشم إلا أنه يظل يحمل دائما دلالات معبرة بالنسبة لفاعله.

من المهم أن نشير إلى أن اهتمامنا بموضوع الوشم مستوحى من الممارسة العيادية التي قادتنا إلى طرح تساؤلات عن الوشم وخصوصيات تطبيقه بالنسبة لبعض المساجين ودلالاته المتميزة عند البعض الآخر، واستنتجنا مدى تعقد هذه الممارسة وكيف أنها تعمل على تغيير الجسد وتغيير أمور أخرى في ذات الإنسان وفكره.

ومن ثمة، فإننا نسعى من خلال هذا الطرح تجسيد هذا الاهتمام والتعمق فيه عبر قراءة تحليلية لهذا الشكل المميز من التعبير الإنساني.

## 2. مفاهيم أساسية:

بما أن عملية الوشم تقام على الجسم الإنساني وتحديدا على المناطق الجلدية منه، فإننا عملنا على تناول أهم المفاهيم الواردة في هذه الدراسة.

**1.2. الجلد (La peau):** كان الناس يتصورون أن جسم الإنسان كله حساس أينما ضربته يتألم، حتى تقدم علم التشريح فجاء بحقيقة مختلفة مفادها أن الجسم ليس كله حساسا بل الجلد فقط، حيث أشار أحمد مصطفى متولي (2005) إلى أنه لو جئت بإبرة ووضعتها في جسم الإنسان فإنها بعد أن تدخل من جلد الإنسان إلى اللحم لا يتألم، ثم شرحوا هذا تحت المجهر فوجدوا أن الأعصاب تتركز في الجلد، وأنها متعددة ومتنوعة، فمنها ما يحس بالحرارة ومنها ما يحس بالبرودة، ووجدوا أن أعصاب الإحساس بالحرارة والبرودة لا توجد إلا في الجلد فقط.

ومن المهم أن نشير إلى أن للجلد وظائف فسيولوجية وحسية وانفعالية وسيكولوجية، حيث يعتبر الجلد أكبر عضو في جسم الإنسان، فهو عبارة عن حاجز فيزيائي يقي الجسم من العديد من الأخطار الخارجية التي يمكن أن تصيب العضوية، ومن التغيرات الأخرى كالرطوبة والحرارة، بالإضافة إلى وظائفه الحسية المتعددة.

وقد أكدت كل من تورتورا وأنانوستاكوس (Tortora & Anagnostakos، 1988، p107) أن الجلد يعمل على المحافظة على معدل حرارة الجسم ويحميه من المثيرات الخارجية ويدرك مختلف المنبهات، إضافة إلى ما يقوم به من عملية التعرق وتقوية الجهاز المناعي، دون إغفال أن الجلد يعتبر عضوا سيكولوجيا؛ فهو موضع ومصدر لمعظم الإشارات العصبية المناعية الغددية (Neuroimmunoendocrinien)،

وقد قدر بأنه أكثر من 3/1 من مجموع المصابين بالاضطرابات أو المشكلات الجلدية مرتبطة بالعوامل الانفعالية والعاطفية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء انتقاء العلاج وتقديمه.

وأضافت أيلي لآو (Aili Löw، 2007، p 15) أن الجلد يؤدي أيضا وظيفة الاتصال الاجتماعي؛ فهو يحدد مظهرنا الذي يميزنا عن غيرنا ويعكس استجاباتنا العاطفية والانفعالية، وهذا المظهر إضافة إلى التماثل الوجودي يجعل الجلد يظهر كمحدد من محددات الجاذبية التي تؤثر حتما في الذات، وذلك على اعتبار أن الأنا الجسمي (Le moi-peau) هو شعور خاص بـ"أنا" مرتبط ببشرة تميز الفرد عن الآخرين وتحدد أنه عن هؤلاء لأن بشرة الجسم هي تعبير عن الهوية التي بفضلها تتم عمليتي التقمص والتفرد.

**2.2. الوشم (Tatouage):** يعود أصل كلمة "Tatouer" إلى منطقة بولينيزيا، وكلمة "Tatou" هي كلمة مركبة من أصل "Ta" التي تعني "رسم مدون على البشرة" ويقصد بكلمة "Atoua" الفكر (Esprit)؛ ومعنى ذلك أن البشرة والروح مرتبطان في سياق يوحدتهما.

والوشم كلمة حديثة في اللغة الفرنسية، مصدرها تاهيتي (Tahitien)، إذ يقصد بـ"Tatou" الرسم، وهذا التعبير هو صورة طبق الأصل لكلمة "Ta" والذي يقصد به "يضرب ويحدث جرحا". وعلى هذا الأساس، دون القائد كوك وبابكس الكلمة بـ"Tattow" وذلك سنة 1772، ثم بـ"Tatou" في سنة 1776.

ويضيف كاروشي (Caruchet، 1995) أن هنود تاهيتي كانوا يطبعون على أجسادهم بقعا يسمونها "تاتو" (Tatou)، ويقصد بها - حسب الترجمة الانجليزية (Tatau) "رسم مدون على البشرة"، مع العلم أن كلمة وخز (Piquer) كانت تستعمل لتوضيح هذا المعنى أيضا.

كما عرف الوشم حسب وينر (Weiner، 2002، p159) أنه عملية نقش لرمز مرسوم على البشرة؛ فهو يمثل نوعا من الكتابة الدائمة من جهة بما أنه يعبر عن أثر شبه ثابت على تلك البشرة، ومن جهة أخرى فهو رسم زائل على اعتباره يعبر عن فترة ما من الحياة. انه يحدث خدشا وإصابة على الجسد

بحيث أن هذه الإصابة البدنية تميزه، وبذلك يبرز الوشم على الجسم الرمز والصورة؛ أي أنه يتموضع ما بين تقاطع ثنائي يجمع بين الخيالي والرمزي.

وقد عرفت مختلف القواميس الوشم أنه مجموعة من الوسائل التي تعمل على إدخال مواد ملونة معدنية أو نباتية تحت البشرة وذلك وفق أعماق وامتدادات متباينة بهدف إحداث رسومات ممتدة زمنيا.

ونحن في هذا المقام نتبنى مفهوم الوشم أنه كل صورة توجد على مستوى جسم الإنسان بغض النظر عن شكلها أو امتدادها أو لونها لأن اهتمامنا ينصب بشكل كبير على دلالاتها وأبعادها على اعتبار أن البشرة تعد موضوع استثمار لبيدي مهم.

**3.2. الأنثروبولوجية الثقافية (Anthropologie culturelle):** يعتبر علم الأنثروبولوجيا من أكثر العلوم الاجتماعية ثراء بالدراسات المتعلقة بنشأة الأجناس والثقافات والحضارات الإنسانية والنظم الاجتماعية.

وقد عرف وسام العثمان (2002، ص11) علم الأنثروبولوجيا أنه علم الإنسان، ويعتبر اصطلاح الأنثروبولوجيا اصطلاحا انجليزيا صدر عن كلمتين يونانيتين، الأولى وهي انثروبوس (Anthrops) وتعني الإنسان، والثانية لوجي (Logy) وتعني العلم، أي أن علماء الأنثروبولوجيا يسعون إلى دراسة الإنسان وكل أعماله وإنتاجاته وانجازاته.

وفي هذا السياق، تعتبر الأنثروبولوجيا الثقافية إحدى الفروع الرئيسية الأنثروبولوجيا العامة، وقد نمت الأنثروبولوجيا الثقافية مبكرا مقارنة بفروع علمية أخرى نشأت ونمت في وقت متأخر.

### **3. السياق التحليلي:**

يعد الوشم من بين الممارسات القديمة التي تحمل -مع ذلك- موضوع اهتمامات حديثة، لأنها حسب ما أشار إليه وينر (Wiener، 2002) تترجم هذه الظاهرة إعادة إحياء ثقافات بعيدة زمنيا مأخوذة من مختلف التقاليد الشعبية منها والمهمشة. ويحق لنا أن نطرح تساؤلنا بخصوص هذه العملية:

هل الوشم هو تعبير عن ظاهرة موضة يمارسها بعض الأفراد فقط، أم أنه أخذ مكانته كفعل ثقافي في خيالنا المعاصر ومجتمعاتنا الحديثة؟.

يبدو جليا بأن هذه الممارسة كانت جد منتشرة في العديد من الحضارات التقليدية، إلا أنها تميل اليوم إلى أن تقل وتفقد من وظيفتها الاجتماعية والثقافية؛ ففي المجتمعات "البداية" كانت الوظيفة الأساسية للوشم أنها تحدد مهام كل فرد من أفراد الجماعة، وكانت تقام وفق طقوس المبادرة والقبول قصد الترقية إلى مكانة الراشد.

وعرف الوشم تطورات هامة على مستوى ممارسته وتحديدًا في جزر ماركيز وزيلاندا الجديدة أين اتسمت هذه الممارسة بقيمة بالغة، حيث نجد الكثيرين يقومون بوشم كامل أجسامهم ووجوههم. كما أنه مورس بشكل منتشر في أوروبا وخاصة في رومانيا وصربيا وفرنسا والبرتغال واليونان.

وقد اعتبرت الأوشام في الثقافات الطوطمية (Totémiques) إنتاجًا لحياة اجتماعية لأنها ارتبطت بعضوية أفراد جماعة ما في منظومة وجودية؛ فالطابع المميز لها لا يحتاج إلى إعادة إنتاج شيئًا يفترض أنه يمثله، فهي مصنوعة من خطوط ونقاط تنتسب إليها دلالات متفق عليها؛ ومعنى ذلك أن الوشم لا يهدف إلى تشكيل موضوع محدد أو التذكير به؛ إنما يشهد عن الانتماء لنفس المجتمع الإنساني وهو نفس البعد الذي حظي به الوشم في الثقافات البدائية. وبالتالي، تقوم الأوشام في هذا السياق بوظيفة الوصم (Marque) أكثر من وظيفة التصور المرسوم الذي يدل على صاحبه.

ولتوضيح هذه الوظيفة، أشار ليفي ستروس (Lévi-Strauss، 1958) إلى أنه توجد مماثلات خطية وفضائية ما بين الوشومات المدونة على وجوه أفراد قبيلة ماوري (Maori) بزيلاندا الجديدة والزخرفات الوجهية عند قبائل كادوفي (Caduveo) (الهنود) بأمريكا الجنوبية، وأنه في كلتا الحالتين تمارس تلك الأوشام في أجواء شبه دينية؛ فهي ليست عمليات تزيينية ورموز وعلامات تخص النبلاء أو مؤشرات دالة فقط على الانتماء إلى طبقات اجتماعية

معينة؛ إنها أيضا- يضيف ليفي ستروس- رسائل ذات غايات روحية سامية؛ فالوشم الماورى يحفر رسما في "الجسد والفكر معا" وفي عمق التقاليد المتوارثة ولدى ممثلي الثقافة، حيث يتسم بقيمة جمالية وفي الوقت نفسه هو معلم اجتماعي موجها للإرسال والتواصل لأنه بفضل الوشم يعمل أفراد تلك القبائل على إدماج فكر وقيم أوساطهم، والأمر نفسه نجده عند قبائل كادوفي (Caduveo) القدماء الذين يجدون متعة لا تضاهى عند رسمهم لمثل هذه الزخرفات.

غير أنه إذا حاولنا التأريخ لهذه الظاهرة، فإنه يصعب علينا أن نحدد بشكل دقيق ميلاد الرسومات الأولى التي أنجزت، فقد أوضح جوكارد (Joucard, 2004) أنه يحتمل أن تكون الأوشام القديمة تلك التي وجدت في طاسيلي والتي تحمل شكل خطوط حادة موضوعة على مستوى الصدر، وكشفت المومياء المؤرخة ما بين 1785-2065 قبل الميلاد عن العديد من الأوشام وتحديدا لدى الراقصات والموسيقيين، كما مارس المصريون القدماء الوشم منذ 2000 قبل الميلاد.

غير أن المتبع لهذه الظاهرة يلاحظ أن هذه الممارسة لم تكن كثيرة الانتشار في القارة الإفريقية عموما. وفي الجزائر، كانت زهرة (Lys) هي الرسم الأكثر انتشارا واستعمالا من طرف سكان إفريقيا الشمالية من الجنسين (الإناث والذكور) وذلك بهدف تزييني، في الوقت الذي اعتبر أيضا جزءا من التطبيب التقليدي.

وبالنسبة للرومانيين واليونانيين، فقد كانوا يستعملون بكثرة الوشم بحيث كان دافعهم الأساسي يتمثل في وصم المساجين والعيبد. كما كان الأفراد الذين ينتمون إلى نفس القبيلة والذين يتفاعلون باستمرار فيما بينهم يخضعون لنفس التقاليد والأعراف يوشمون بنفس الطريقة؛ وهو الأمر الذي يجعل الوشم بطاقة هوية جماعية يميز قبيلة عن قبيلة أخرى.

كما أخذ الوشم في منطقة المحيط الهادي طابع الممارسة السحرية التي تسمح بإخراج الأرواح التي تسكن الجسم، بالرغم من أن هذه الممارسة أخذت مناحي أخرى عبر الزمن بحيث تطورت وفقدت شيئاً فشيئاً من وظيفتها السحرية-الروحية لتتحول إلى رمز وصفي (Code) يمس مختلف الطبقات الاجتماعية والتحالفات البشرية. واليوم وإن كان الوشم القبلي (Tribal) ما يزال يحتفظ بعض الشيء بوظيفته التطبيعية الاجتماعية، فإنه لم يعد يمثل إلا ثروة زخرفية وثقافية لأشكال فقدت الكثير من معانيها.

كما أن كاروشي (Caruchet، 1995) يشير إلى أننا نلمس في حضن الثقافات القبلية بأن التغيرات الجسدية المدونة عبر مختلف الأوشام تسرد حكاية عن الهوية والطبقات المختلفة (زواج واحتفالات ومناسبات وغيرها)، حيث تكون الأوشام حاضرة في الولائم العائلية والحفلات الدينية لتروي التاريخ الخرافي للقبيلة. إضافة إلى هذا، فهي تعمل -في اعتقاد تلك القبائل- على حمايتها من مختلف الشرور والأذى الذي قد يهددها، ومن ثمة تحتل الوشومات موقعا مميزا في نسيج الممارسات الطقسية الشعائرية من حيث أنها تعبر عن "حكايات عائلية أو خاصة بجماعات الانتماء".

وهذا التطور الذي طبع المسار التاريخي لممارسة الوشم من الطابع السحري-الديني ثم الطابع الاجتماعي إلى مجرد وظيفة تزيينية نجده قد أخذ تقريبا نفس المنحى عند العديد من المجتمعات التي مارست عملية الوشم؛ حيث كان الوشم في اليابان على سبيل المثال يمثل قوى الآلهة وأرباب الحروب والصيد وطبقات النبلاء، إلا أنه استعمل أيضا -ولمدة طويلة- لأهداف عقابية تحت تأثير الحضارة الصينية، حيث كان في القرن السابع عشر يرسم المجرمون على جباههم صور كلاب، وفي كيوتو (Kyoto) يرسم على سواعدهم خطان وفي نارا (Nara) يحاط على ساعدهم الأيمن خطان، وفي ساشوما (Satsuma) ترسم دائرة بالقرب من الكتف الأيسر، إلا أن هذا الوشم العقابي اختفى تدريجيا مع بدايات القرن التاسع عشر.

وفي نفس السياق، أشار بونس (Pons، 2000) إلى أن الوشم الياباني، فيما بعد، اعتبر فنا عاميا (Plébéien) له قيمة تزيينية على الجسد وصلة ربط مع الآخرين، حيث مورس الوشم في اليابان -كما ذكرنا فيما سبق- من طرف الطبقات الاجتماعية الدنيا إلا أنه تطور -مع مرور الزمن- ليأخذ شكلا فنيا يؤنس ويحضر ويعطي للجسد طابعه الاغرائي، وهو ما يجعله حاليا بمثابة إنجاز فني جميل، حيث يمكن اعتبار ممارسة الوشم عملية انتقال على مستوى الإدراك: فبعد أن أدرك الجسم أنه جسم تشريحي (anatomique) تحول إلى جسم متحضر (civilisé) يعمل على استثمار الهومات ليجعل من الجسد صورة تجسد هذا التغير.

وعلى خلاف ما كان موجود في اليابان، يضيف نفس الباحث أن الوشم اعتبر في الصين والغرب عموما فنا يعبر عن تحكم تقني من طرف الفنانين الحرفيين أكثر من مجرد عملية بناء للرسالة التي تحملها هذه الرسومات، لأن الوشم في هذه المناطق يظهر براعة الواشم ومهارته بحيث يأخذ الرسم قيمته بفضل الدقة التي يتميز بها الواشم والتقنية التي يستعملها والتركيب الذي يعتمده.

والجدير بالذكر أن أوروبا اكتشفت الوشم من خلال الرحلات البحرية، إذ كان القادة والمكتشفون والبحارة والضباط والجنود يرسمون ذكريات أسفارهم تحت تأثير جمالية هذه الرسومات وثناءها من جهة، وكذلك لأغراض تجارية من جهة أخرى. وبالتالي، بدأ الأوروبيون وخز.شرااتهم في القرن الثامن عشر، وكان بعض المسافرين يلجئون إلى الوشم بهدف اندماجهم في المجتمعات التي يقيمون فيها كسبا لاحترام وود تلك الجماعات المستقبلية لهم.

وبالتدرج أصبح الوشم ظاهرة موضة في أوروبا وانتشر خاصة بين الأوساط الأرستقراطية والسياسية. مع العلم أن الديانات الغربية منعت ممارسة الوشم بحيث اختفت في أوروبا ماعدا بعض الحالات الخزفية وذلك في



القرون الوسطى، ولم يعاود الظهور إلا في القرن الثامن عشر بفضل  
مكتشفي جزر المحيط الهادئ.

ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت النساء توشم وذلك بألمانيا (برلين)،  
واتسع نطاقه ليمتد بشكل بارز بين النبلاء والسادة بحيث مورس من طرف  
ادوارد السابع عشر وابنه جورج الخامس وأبناء الملكة فيكتوريا، وكذلك  
فريدريك الثالث الذي عاد رفقة جورج الأول بعد زيارتهما إلى اليابان حاملين  
وشما يمثل التنين "Dragon" على صدرهما. واستمر رواج هذه الممارسة في  
أنحاء العالم (أوروبا وأمريكا على وجه الخصوص)، ويعتبر رؤساء أمريكا على  
رأس هؤلاء الموشومين (تيودور وفرانكلين روزفلت وترومان وكينيدي) إضافة  
إلى تشرتال ومونقومي وستالين وتيتو وغيرهم.

وبناء عليه، يمكننا أن نكتشف التطور التاريخي الذي طبع هذه الممارسة،  
حيث أكد ديشو (Descamp، 1986، p163) عالميتها بحيث قال: "يسافر الوشم  
من وسط إلى وسط ليعبر عن الموضة وعن الشعبية معا".

ومن المفيد أن نذكر بوجود أوشام بدائية خاصة بالأوساط العقابية التي  
غالبا ما طبعت الحقبات التاريخية السالفة. إلا أننا نجد اليوم أفرادا غير  
مجرمين يقومون بعملية الوشم بحيث أشار وينر (Weiner، 2004) إلى أن  
الرسومات الجسدية المتطورة (Sophistiquées) تدل على انطلاقة فنية  
راقية، وقد ظهر بعد الحرب العالمية الثانية تيار فني اسمه "الفن الجسدي"  
(Body Art) الذي عمل على إبراز الجسد كمادة قابلة للعرض، إذ تطورت  
الأوشام على مستوى عملية انجازها وذلك مع ظهور هذا التيار إضافة إلى  
بروز فن التصوير المعاصر (contemporaine Photographie) الذي هدف إلى  
تجسيد الجمال و"تفنين" الجسد. ومع انتشار هذه الظاهرة ظهر ما يعرف  
بالأوشام الحقيقية والأوشام المزيفة، والخاصية التي تميز هذين النوعين  
تكمن في الفارق النوعي من حيث دوام هذه الرسومات المحفورة على البشرة  
أو على العكس من ذلك.

وعلى هذا الأساس، يعبر الوشم في الوقت الحالي عن ولادة انجازات فنية عظيمة، كما أنه يعكس بعض جوانب الجمال الداخلي ويلعب دورا إغرائيا (الفاعل هو فنان يرسم على الجسد) لأن الوشم مشحون بدلالة الإغراء والأغراض الشهوانية، ويبدو أن مثل هذه الرسومات قليلة الانتشار (مثل وشم يحمل صورة للنساء ولكل ما يتعلق بهن ويشبه ذلك)، وبالتالي دخل الوشم في سياق الفن التخطيطي الحقيقي (Graphique).

وإشارة إلى ما ذكرنا بخصوص الوشم في الأوساط العقابية، فقد ذكر وينر (Weiner، 2004) بأن الأوشام كانت قد درست من طرف الانترولوجيا الإجرامية، ونجد في هذا السياق كتابا كان قد ألف سنة 1881 بخصوص المجرمين يحمل عنوان "تصنيفات رسومات الوشم"، وانتسبت بعض تلك الرسومات للأفراد المضادين للمجتمع وذوي الفكر المتمرد كشكل من الممارسات التي تعبر عن طريقة حياة مهمشة وعن ميول بدائية.

وفي مثل هذه الحالات يعبر الوشم عن دوافع العنف والحقد والثورة والتمرد وهي كلها مواضيع كثيرا ما تتجسد من خلال بعض الرسومات التي تكون موجودة على وجه الخصوص في الأوساط المهمشة، حيث تعد وسيلة للتعبير المضاد اجتماعيا (عند الطوائف على سبيل المثال) كأن "نرسم" العدوانية ضد السلطة أو التضامن المميز وإبراز علاقات خاصة داخل جماعات معينة.

وقد أشار أرتيارس (Artierés، 2004) إلى أن الوشم يقوم بوظيفة مزدوجة الأبعاد تتجاوز الحركة الطقسية (Geste ritualisé) إلى ما وراء هذه الحركة التي تسجل الانتماء إلى جماعة مكونة لأفراد ما، ويمكن أن يكون الوشم أيضا بمثابة أرشيف خاص بالذات في حالة حملها لعنصر شخصي على بشرة الفاعل. وبالتالي، يدرج أرتيارس (Artierés، 2004) الوشم ضمن النسيج الذاتي (Tissu biographique) للفرد الموشوم، حيث تعد الأوشام بصمة لتقليد كتابة على الذات بالنسبة للأفراد الذين لم يتمكنوا من الاندماج، ويكون الأمر كذلك خاصة حين يتعلق الأمر بتسجيلات جسدية بمناسبة حوادث مهمة قصد تدوينها (مثل الميلاد والحداد والحب)؛ فمثل هذه الأوشام تخزن

أحداثا خاصة مميزة وذلك بواسطة الجسد لتصب وفق أسلوب مشترك بالجماعة. ومن ثمة، تبتعد هذه الرسومات عن وظيفتها الطقسية (Fonction rituelle) التي كانت تمارس في إطار قبلي منحصرة في الاحتفالات الجماعية، حيث كان الوشم حسب ما ذكر وينر (Weiner، 2004) كائنا موجودا على مستوى الخيال الجمعي ومرتبطا بأجساد هؤلاء الذين ينتمون إلى حضيض المجتمعات؛ وهو الأمر الذي قد يفسر الانزعاج والازدراء الذي كان يحاط به فيما سبق.

وقد أوضحت برونا (Bruna) أن الأوشام كانت مخصصة للبؤساء والمعدومين، غير أنها اليوم على خلاف ذلك صارت مطلوبة لدى البعض الذين لا ينتمون إلى تلك الطبقات الاجتماعية الدنيا.

كما أن هذه التغيرات الجسدية التي تحدث جراء الوشم تحمل عدم اهتمام بخصوص القيم الدينية في الثقافة الغربية وذلك على حساب التفتح الكبير للمزيج الثقافي والعرقى. ومن ثمة، بدا أن النسيج الاجتماعي لا يلعب دوره الوافي لأن العناصر المعلمية (Repérage) ضعفت وضعف انتماء الفرد للمجتمع. وبالتالي، صار الوشم عند البعض يمثل طريقة للظهور من خلال نقوش جسدية تأخذ أبعادا ذاتية محضة (Immatriculation).

كما أخذ الوشم طابعا آخر يخص أعضاء الجماعات المهمشة، حيث نلاحظ انتشاره على وجه الخصوص في الأوساط الأحادية الجنس مثل الثكنات والسجون والملاهي والمحتشدات وذلك "كتعويض عن غياب الجنس الآخر وطريقة لإحضاره فوق البشرة من خلال تحويل الجسد إلى موضوع فتيشي بحيث يعبر عن الصورة البديلة"، "ويكون أيضا بمثابة الذاكرة" على حد تعبير فرانس بورال (France Borel، 1992، p 167).

والمقصود من ذلك أن الجماعات التي تقوم بالأوشام تباينت من حيث غاياتها بحيث صار الوشم أكثر شخصية (Individualisée) رغم تعبيره عن الانتماء لجماعة ما وذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ومن جهته، أضاف وينر (Weiner، 2004) فكرة أخرى بخصوص الاستعمالات الكثيرة للوشم تتمثل في التعنيف الوحشي الذي قام به النازيون ضد ضحاياهم، حيث استعمل لمحو أسماءهم الخاصة وهويات هؤلاء الضحايا.

والآن في العراق، فقد أدخل الوشم ضمن ثقافة الموت بحيث أصبح علامة تميز جثة صاحبه إذا ما قتل، وتولدت هذه الممارسة كرد فعل على موجة العنف والتقتيل المنتشرة هناك وأصبح البعض ينحت هويته على جسمه خشية أن ينتهي به المطاف جثة في المشرحة لا يستطيع أحد التعرف عليها والمطالبة بها (عن جريدة الخبر، 2007).

ويضيف وينر (Weiner، 2004) فكرة أخرى مفادها أن الأوشام المعاصرة تميل إلى أن تأخذ طابعا يعبر عن الهوية، وقد يتماشى ذلك و"عبادة الذات" التي تظهر في رغبة الموشوم في إظهار جسده بديكور مميز، ومن ثمة يمكن أن يكون الوشم شكلا من الأشكال التي تعبر عن الملكية الخاصة (Appropriation) لهذا الجسد ولو على المستوى الخيالي.

بعد أن عرضنا دلالات الوشم بصفة عامة، نعمل في هذا الصدد على إعطاء نماذج تطبيقية بخصوص عملية الوشم في بعض المناطق، مع إبراز الدلالات المشتركة تارة ومختلفة تارة أخرى على مستوى هذه الممارسة.

#### - في جزر المحيط الهادئ:

يعتبر الوشم في العديد من الجزر المحيطية جزءا متكاملًا من ثقافتها بحيث يعبر عن أنظمة من التحالفات والانتماءات إلى جماعات معينة أخذًا بعين الاعتبار التاريخ الشخصي، وقد أوضح داليفا (D'alliva، 1998) أنه بذلك يجسد الهوية الخاصة بالأفراد بحيث تعد الأوشام طقسًا ضروريًا لتحقيق البعد الاجتماعي. فالمتبع لتاريخ الحضارات والمجتمعات التقليدية يلمس -على خلاف الأوشام المعاصرة- أنها لا تمس الجسم الفردي فحسب إنما الجسم الاجتماعي لأن كل نشاط فني -بما فيه الوشم- يخضع إلى ما يعرف باللاما (La Lama) وهي قوة نشطة مرتبطة بالأسلاف وبالقوى الإلهية،

وبالتالي يأخذ الوشم من خلال هذه الغاية أبعادا اجتماعية ودينية على حساب البعد الشخصي الذي يميز الفرد.

#### - غينيا الجديدة:

يمارس الوشم في هذه المنطقة ضمن الطقوس الأولية التي تقام في المناسبات الكبرى لتلك المجتمعات، مثل أن يطبع انتقال المراهق إلى مكانة الراشد، حيث ينظر إلى الوشم على أنه دليل تحمل وقوة من طرف هؤلاء المراهقين. وفي هذه المناطق أين يعد الصيد من بين الأنشطة الأكثر ممارسة، فإن الطفل الذي لا يخضع لهذه المعاناة (معاناة رسم الوشم على جسد المراهق) يوصم بالعاجز على اصطلياد السمك وهو ما يقابل عجزه أيضا على إيجاد زوجة له في المستقبل، وعلى خلاف ذلك فإن الفرد الذي يكثر من ممارسة الوشم ينال إعجاب ومديح الجماعة لأن ذلك يدل على مدى صبره وتحمله. والأمر نفسه بالنسبة للنساء غير الموشومات؛ فهن محطة عار وتأنيب من طرف الآخرين، وتوجد في هذه المنطقة نساء متخصصات في أداء هذه الممارسة، وهن في الغالب نساء جميلات وقويات.

ونشير إلى أنه لا يوجد رسم جاهز لأن كل وشم هو فريد من نوعه. وبخصوص تطبيقه، فإنه يمارس بالنسبة للذكور من خلال تنظيم الجماعات لمهرجانات تسودها المشروبات الكحولية وبعض الطقوس الاحتفالية، إلا أنه بالنسبة للنساء يحدث في هدوء وانسحاب لأن الدم الأنثوي يعتبر نجسا ومهدد للقوى الحربية والبحرية للرجال.

#### - في منطقة بولينيزيا:

تسمح الأوشام التي يحملها الفرد على بشرته بالتعرف على العائلة التي هو عضو فيها، وتعمل على تمييزه بين المراتب أو المكانة الاجتماعية وذلك باختلاف أشكال تلك الرسومات، حيث يوجد منها ما هو خاص بجماعة ما دون الجماعات الأخرى، وبالتالي يعبر الوشم عن وسائل حقيقية للاعتراف لأنه بمثابة بطاقة هوية منظمة تخصص لمعرفة الأشخاص من خلال الرسومات التي يحملونها.

ومن المهم أن نشير كذلك إلى أن محتوى ومكان الوشم لهما قيمة رمزية قوية على المستوى الإيديولوجي أو العاطفي، إذ أنه رغم الاختلافات الموجودة على مستوى تلك الأوشام من حيث مضامينها وأشكالها إلا أنها "تتكلم" وتخبرنا عن أشياء كثيرة بخصوص الموشوم وذلك بطريقة شعورية ولا شعورية. ومن ثمة، وجدت نوعان أساسيان من الأوشام، هي:

- الأوشام المرمزة (Tatouages Codés): غالبا ما تكون عبارة عن أشكال هندسية مهمة، ونجدها خاصة في الأوساط العقابية أين تطور المساجين رموزا سرية نوعاما يتواصلون من خلالها وذلك بسبب العزلة أو أسرهم لسنوات عديدة، غير أن بعض هذه الأشكال وجدت منتشرة أيضا (مثل النقاط والخطوط والصليب) في بلاد المغرب العربي والعالم العربي رغم تباين مدلولاتها.

- الأوشام التصويرية (Tatouages figuratifs): هي أكثر ممارسة وانتشارا في المجتمعات المعاصرة، وقد علل بورال (Borel، 1992، p167) ذلك بقوله أن: "الخطوط والألوان لا تستعمل لذاتها، إنما لتمثل تصورا نوعاما واضحا ومرثيا".

وأشار أندريو (Andriew 2005) إلى أن الوشم يعبر عن خلال علاماته الجسدية على أنماط من تأكيد الذات في إطار الجماعة التي ينتهي إليها الفرد، موضحا أنه وجد أيضا عند الشعوب البدائية ترميز (Codification) لهذه العلامات الجسدية التي تباركها الجماعة. بينما اليوم، فإن الأمر يختلف بحيث أن الإنسان يضع علامات معينة على بشرته بدون أن يفرضها المجتمع عليه، وبالتالي تعبر تلك العلامات المميزة الموجودة فوق جسمه على أنه يحمل هوية ما من اختياره (بناء هوية من خلال الخاصية التي نضعها على الجسم).

يظهر من ذلك أن العلاقة بين الداخل/الخارج (الاعتقاد والوشم) لم تعد مبنية على إدماج القيم والقوانين كما كان في السابق، وأنها ليست إشكالية مرتبطة مباشرة بالجماعة وأعرافها؛ فالفرد يسجل على جسمه هويته لأنه

يعمل على تأطير ذاته الخاصة ويؤثر على ما هو معطى طبيعي بأن يحوله ليصبح بديل دائم، وفي هذه العملية يجب أن نميز اختيار الموضوع والأداة لأن البديل الدائم يكشف عن منطق عدم التغيير (Irréversible).

إضافة إلى هذا البعد الذي تناوله اندريو (Andriew، 2005)، فإنه ذكر بعدا آخرًا يتمثل في الإدماج (L'incorporation) على اعتبار أن البشرة مساحة جمالية ونفاذة (Perméable) وتعمل على إدماج مختلف الإحساسات؛ فهي محطة عبور بحيث توجد مستويات من الإحساسات التي تطرح مشكلة العتبة الحسية لأجسامنا، والتي تكون متباينة: فالألّم ليس شيئًا موضوعيًا؛ فهو يرتبط بانتباهنا لأنفسنا وبالخطاب الذي نحمله بخصوص أجسامنا لأن الإحساس هو نفسي-فسيولوجي.

وإذا كانت الأوشام تعبر عن انجازات فنية تظهر إبداع الواشمين، فهي تخفي حقائق أخرى ودوافع واعية وغير واعية تدفع ببعض الأفراد إلى اختيار وشما دون غيره؛ فقد يعبر عن اعتقادات وتطير خاص بالموشوم لأنه يستثمر في ذلك قدرة سحرية أو دينية على اعتقاد منه أن الوشم يلعب دورا وقائيا أو يعمل على حمايته من مختلف الشرور (مثل وشم العذراء أو الصليب وغيرهما).

ومما لاشك فيه، إذن، أننا نعتبر الوشم أداة اتصالية اعتمدت في الكثير من السياقات الاجتماعية والثقافية والشخصية، وقد وجد أنه يخص أيضا بعض الشخصيات المضطربة التي لا تحسن التعبير على المستوى اللفظي، حيث يلجأ هؤلاء إلى طريقة أخرى من الاتصال وذلك من خلال ما يقومون برسمه على أجسادهم.

كما تحمل الأوشام وظيفة مزدوجة يمكن تحديدها في نوعين:

- الأولى وظيفة داخلية تضمن دوام الأنا الأعلى،

- الثانية وظيفة خارجية تستدعي نظرة الأخر لمحاولة افتتانه.

وقد اعتبر ديشو (Descamps، 1986، p175) هذين الوظيفتين مهمتين بحيث عبر عن ذلك قائلا: "يظهر سلوك الوشم كنظام دفاعي ضد وضعية قلقلة؛

فهو يحدد دائما قرارا وجزءا من مثال الأنا ويسمح بالولوج في علاقة مع الذات ومع الجماعة من خلال عملية التقمص، وكذلك مع العالم الخارجي بإظهار ما لا يمكن التعبير عنه بطريقة أخرى".

ولتدعيم هذه العناصر، أوضح أندريو (Andrieu، 2005) بأن الجسد في مفهوم التحليل النفسي يعتبر محطة لكل الإحساسات والنزوات المختلفة، وأن المعاش الجسدي هو فريد من نوعه يمتاز بخاصية التميز، حيث أن صورة الجسم -لا تدرس فقط من مدخل فسيولوجي- إنما تعبر أيضا عن صورة نفسية ورمزية، وقد أظهر فرويد (Freud) بأن الأنا (Moi) قادر على استثمار اللبيدو وما حوله؛ وهو الأمر الذي يؤدي إلى النرجسية، ومن ثمة يجب أن لا ننظر إلى البشرة بأنها لا تقوم بأي وظيفة؛ إنما هي حاجز ما بين الداخل والخارج لأنها "مساحة لسانية ومفكرة ومعبرة" ..

ويضيف وينر (Weiner، 2004) بأن الوشم يشترك مع الدافع من حيث تموقعهما على الجسد الذي يعتبر مصدر لذة ومحطة تسمح بتحقيق مختلف الهوامات لأنه يعطي الطابع القضيبى (attrait phallique) لمنطقة ما من الجسد التي تشتت، وبظهور الوشم على مساحة الجسم يقوم بوظيفة منظرية (Scopique): يرى وينظر إليه بحيث يمثل منبع متعة يستلذه البصر على البشرة؛ ومن ثمة يعد الوشم تسجيلا شهوانيا أو رمزيا وهو يشبه الهستيريا لكن بشكل مخالف، لأن الهستيريا تحول الجسم-بواسطة عرض التحويل- كموقع جسدي من صلابته الشهوانية، في حين يعمق الوشم من هذا البعد الجسدي وذلك بحفره لرمز ولهوام يعطيهما طابعا شهوانيا، حيث يتضح ذلك في قضيبية (Phallicisation) المنطقة الموشومة التي تجسد اللبيدو على الجسد، ويظهر هذا البعد أيضا من خلال عملية الوشم في حد ذاتها وفي العلاقة القائمة بين الواشم والموشوم.

كما يؤخذ الوشم كصورة مرئية تستدعي الآخر، حيث يستمد فعاليته في إمكانية بناء ذكرى عن صورة الغائب أو ما يسميه لكان (Lacan، 1969) بـ "استحضار الآخر"؛ فما هو محفور على الجسد يمثل أثرا بخصوص الماضي



الذي انقضى، ويمكن بعد ذلك أن يكون ويبني بصمة قابلة للرؤية تخبرنا عن ذلك الماضي، بالتالي يعمل الوشم على جمع وتكثيف (Condenser) الماضي بالحاضر. ففي هذا السياق، تكون لصورة الوشم قدرة حيوية في جمع العناصر المتشابهة (Hétérogènes)، لذلك قال وينر (Weiner، 2004) نقلا عن هوبرمان (Huberman) أن "الصورة ليست تقليد للأشياء؛ إنما الفاصل الذي يمكن رؤيته"؛ ومعنى ذلك أن المدة الزمنية الموجودة بين حاضر الصورة المرئية للوشم وإبرة الواشم تعد نقطة فاصلة تعبر عن ذلك الماضي، ومن ثمة تتموضع الذكرى الماضية ما بين الأثر المتروك للوشم وبين تلك الترابطات التي يفرزها.

إضافة إلى وظيفة استحضار صورة الغائب، تحمل عملية الوشم مفهوم " أن يكون موضوعا" (Se faire objet)؛ أي أن يكون الموشوم في وضعية سلبية، حيث يكون جسمه أثناء هذه الممارسة كموضوع سلبي نوعا ما وعرضة للألم، وفي حالة ما إذا أعلن هذا الألم عن إحساسات اللذة، فإن الأمر يتعلق باقتصاد نزوي (Economie pulsionnelle) يشبه المازوشية، وقد تترجم هذه العملية كبديل عن الفعل الجنسي: حيث يشرح وينر (Weiner، 2004) ذلك بأنه يمكن فعل عملية الإيلاج بواسطة إبرة الموشوم؛ والمقصود من ذلك أن البعد الشهواني في عملية الوشم يكمن بصفة خاصة في المنطقة التي خضعت للوشم.

ويضيف وينر بأن ممارسة الوشم تبرز وظيفة الاستحضار ومحاربة النكران (Anonymat) ويمنح طابع التميز لفاعله، ويرى البعض أن الوشم يعبر عن مظاهر تستثمر ميول صادية-مازوشية أو جنسية مثلية (إدخال إبرة على البشرة)، إلا أنه يعلن عن وجدان ما ويعبر عن وجود ذاكرة جلدية (Cutanée)؛ يسرد تاريخ حياة يصعب أحيانا الحفاظ عليها بطريقة أخرى، وبالتالي يكون الوشم في هذه الحالة مظهرا عاطفيا قويا يختصر قصصا لا يظهر منها إلا الأثر، لذلك سمي كذلك بالذاكرة الأثرية (Cicatricielle)؛ فهو على حد تعبير لাকা (Lacan، 1958) " يمثل دائما علامة وتعبير": فلا يتكلم

الجسد رغم ما يحمله من معاناة ومن رسائل تكون في الغالب مشحونة بخطابات أخرى كثيرة.

#### - الخاتمة:

ما يمكن استخلاصه مما ورد بخصوص الأبعاد الثقافية الخاصة بممارسة الوشم هو أن الوشم يعتبر جزءاً من تاريخ الإنسانية، فالإنسان الأول استعمله طلباً للحماية وتأكيداً لوجوده كإنسان مختلف عن باقي الكائنات الأخرى ومبرزاً كذلك نوعاً من الشجاعة والرجولة، وتحول فيما بعد إلى ممارسات طقسية تقام للاحتفال بمختلف أشكال الترقيات الاجتماعية (مثل الانتقال من مرحلة الطفولة إلى الرشد). وساد الاعتقاد أن مثل هذه الممارسة مشحونة برموز مقدسة-سحرية لها وظيفة الحماية والشفاء، إضافة إلى اعتباره علامة تدل على الاعتراف والتميز بالنسبة للرجل، وعنصرًا تزيينياً ومؤشراً جمالياً بالنسبة للنساء، وبالتالي فهو يحدد الأدوار الاجتماعية لكل من الذكور والإناث.

وحمل الوشم في أحيان أخرى دلالات متناقضة تعكس مدى التطورات التاريخية والحضارية؛ فقد ظهرت تارة أنه ميزة للفتات المهمشة والمتمردة عن النظام والتي تلجأ إلى تعذيب جسمها، وتارة أخرى ظهر بمثابة فن من خلال أداء عمليات تجميلية للجسد الذي استثمر وتجميل، وبالتالي فالوشم ليس مجرد رسم إنما لغة مرمزة مشحونة بقيم رمزية كبيرة نحتاج إلى قراءات دقيقة لفهمها والتعمق فيها.

كما يجب أن نشير إلى أن ممارسة الوشم هي في الأصل طقس كان مشتركاً كفعل ثقافي ضمن ثقافات العديد من الحضارات الإنسانية؛ وأن اليوم فقدت هذه الممارسة البعض من طابعها الاجتماعي بحيث لم تعد لها دلالة الانتماء إلى قبيلة بحكم تطور المجتمعات الحالية، ورغم ذلك فهي تعبر عن رمز للانتماء والاعتراف عند بعض الجماعات ذات التنظيمات البدائية كالعصابات.

وعلى هذا الأساس، يعتبر الوشم نشاطا إنسانيا أخذ أبعادا كثيرة تبدأ بالانتماء إلى جماعة ما لتمتد إلى التعبير عن الفردانية المميزة (Singularité) التي يمكن أن توظف كسند تقمصي وذلك مرورا بالبعد الاغرائي (Erotique) لهذه الممارسة.

وعموما، فإن كل هذه الاعتبارات تجعل من الوشم ممارسة تحتفظ بطابعها الاتصالي الذي يسمح بالإعلان عن الأفكار والمشاعر الشخصية والانتماء للجماعة؛ فهو ممارسة شخصية تعكس الوجدان الفردي وفي نفس الوقت تخزن الميراث الجماعي، لأنها طريقة من بين الطرق الإنسانية الكثيرة والمتنوعة التي تعبر عن خطابات اجتماعية وأحداث شخصية ذاتية تدون أحيانا قبل حدوثها وفي أحيان أخرى بعد حدوثها، وكلها ترتسم على الجسد الإنساني المثقل بالكثير من العواطف والإحساسات والمشاعر والذكريات التي تصب لا محالة في قالب الاتصال الإنساني.

#### - قائمة المراجع:

##### المراجع باللغة العربية:

1. أحمد مصطفى متولي (2005): الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ط1، دار السلام للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
2. جون ويس (1992): العناية بالجلد، ترجمة: عماد أبو سعد، ط1، مؤسسة الرسالة، الجزائر.
3. جريدة الخبر اليومية، 21 جويلية 2007، الوشم في العراق هوية وسط التقتيل والجنث المجهولة، عن شبكة الأنبياء الإنسانية "أيرين".
4. وسام العثمان (2002): المدخل إلى الأنتروبولوجيا، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا.

##### المراجع باللغة الأجنبية:

5. Aili Low. J.F(2007).It not just a burn. Physical and Psychological problems after burn. Faculty of Medicine. Acta Universitatis Upsaliensis. Swiden.
- 6.Andriew. B. (2005).La question du tatouage: la philosophie de la connaissance.
- 7.Artierès. PH. (2004). A fleur de peau: tatouage et tatoués. Ed.Allia. Paris.
- 8.Borel. F. (1992).Le vêtement incarné. les métamorphoses du corps. Calmann-Lévy Ed. Par
- 9.Caruchet. W. (1995).Le tatouage ou le corps sans honte. Séguier. Paris.
- 10.D'Alleva. A. (1998).Le monde Océanien. Flammarion. Hong Kong.
- 11.Descamps. M.A. (1986).L'invention du corps. PUF. Paris.
- 12.Joucard. S. (2004).Tatouage et détatouages. Service de chirurgie plastique et des brûlés. E.H.S de Douera. Algérie.
- 13.Lacan. J. (1958).les formations de l'inconscient. Le Seuil. Paris.

14. Lacan. J. (1964). Les quatre concepts fondamentaux de la psychanalyse. Le Seuil. Paris.
15. Lacan. J. (1969). d'un Autre à l'autre. Séance du 11 Juin 1969. Séminaire inédit.
16. Lévi-Strauss. C. (1958). Anthropologie structurale. Plon.
17. Pons. PH. (2000). Peau de brocard, le corps tatoué au Japon. Le Seuil. Paris.
18. Tortora. G.j & Anagnostakos. N.P (1988). Le principe d'anatomie et de physiologie. Paris, France.
19. Weiner. S. ( 2002). "Le tatouage de la griffe à la marque subjective". Revue Essaim. N.8. p165.
20. Weiner. S. (2004). Le tatouage: de la parure à l'œuvre de soi. Champ psychosomatique. N.36. pp159-170.